مقدمة المرزوقي

لشرح الحماسة أبي تمام

شرح هذه المقدمة وضبطها

- ٦ -

(ويروى عن عمر أنه قال في زُهير : كان لا يمدح الرجلَ إلا بما يكون للرجال) .

أراد الاحتجاج بكلمة صدرت من أحد أهل الذوق العربي بالسليقة وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه قدّم زهيراً بن أبي سلمى على غيره من الشعراء بثلاثة أمور سيجيء ذكر الأول والثاني في كلام المؤلف وثالثها هو أنه لا يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال وفي رواية إلا بما فيه . وما اقتصر عليه المؤلف أظهر في الغرض يعني أنه يصيب المحز من وصف المعنى فاذا مدح أحداً مدحه بصفات الكمال في الرجال كقوله في معلقته يخاطب هرم بن سنان والحارثَ بن عوف .

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
عظيمين في عليا معد هديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

فهذا مدح بصفات الكمال والفتوة وهو أفضل من قول النابغة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

ولما مدح عبيد الله بن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان بقوله :

بأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

عتب عليه عبد الملك وقال إنك قلت في مصعب بن الزبير :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إنما مصعب شهاب من اللـــه تجلت عن وجهه الظلماء

وإنما أنكر عليه من أجل أنه عدل به عن بعض الفضائل النفسية الى ما هو من صفات الجسم في البهاء والزينة فكان كالذي ينسب بمحاسن الحسناء .

واعلم أن هذا الأصل يختلف باختلاف العوائد واختلاف أغراض الناس من عناية بالفضائل النفسية أو المزايا الجسمية أو كليهما قال تعالى : « وزاده بسطة في العلم والجسم » . وكذلك اختلاف أحوال المدنية والبداوة وانظر قول جعفر بن علبة :

إذ تم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

تجد ما مدح به نفسه جارياً على خلق الأبطال ولو سمعه الحكيم لعده تهوراً .

(فتأمل هذا فان تفسيره ما ذكرناه) .

أمر بالتأمل لظهور أن عمر لا يريد بما يكون للرجال الاحتراز عن صفات النساء لأن ذلك لو وقع لكان غلطاً ولا يريد أيضاً أن يكون ما يمدح به ليس بمدح ولكنه أراد انه يمدح بما هو كمال حق . وقوله فان تفسيره ما ذكرناه أي هو جزئي من جزئيات قاعدة إصابة الوصف أي توصيف المعاني المقصودة فان المديح نوع من أغراض الكلام ومعانيه فأراد بالتفسير التمثيل .

(وعيار المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير فأصدقه مالا ينتقض عند العكس) .

لأن الفطنة هي التي ترشد الى مشابهة شيء لشيء أو أشياء وأما حسن التقدير فهو الذي يختار الشاعر بواسطته أشبه الأشياء بالمشبه به في الصفات المقصودة ومعنى أصدق التشبيه انه الأشد مطابقة لما في نفس الأمر بحيث لو عُكس التشبيه فجعل المشبه به مشبهاً لكان صادقاً وهو التشبيه المقلوب لأنه يتأتى عن شدة المشابهة كقول المتنبي :

وقابلني رمانتا غصن بانة يميل به بدر ويمسكه حقف

فشبه الثديين برمانتين وقال الآخر :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورمانة شبهتها إذ رأيتهـا بثدي كعاب أو بحقة عرمرم

(وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما) .

هذه الكلمة لقدامة في كتاب نقد الشعر .

(ليتبين وجه التشبيه بلا كلفة إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكها له لأنه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس) .

أي أحسن التشبيه ما كان وجه الشبه فيه ظاهراً حتى لا يحتاج الى ذكره فان كان خفياً كان من المناسب التصريح به كقول المعري في التشبيه المفرد :

رب ليل كأنه الصبح في الحـــــن وان كان أسود الطيلسان

وقول النابغة في التشبيه المركب :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع

(وقد قيل أقسام الشعر ثلاثة : مثل سائر وتشبيه نادر واستعارة قريبة) .

لم يعز هذا القول الى معين .

وظاهر هذا الكلام حصر الشعر في هذه الثلاثة وهو حصر للمبالغة تنويهاً بهذه الثلاثة كما لا يخفى والمراد بالتشبيه النادر هو الذي لا يهتدي اليه عامة الناس فالآتي به يدل على حسن فطنته وتخيله . قال في أسرار البلاغة [1] : «والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون التشبيه المقصود من الشيء مما لا ينزع اليه الخاطر ولا يقع في الوهم عند بداهة النظر الى نظيره الذي يشبه به بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس عن الصور التي تعرفها وتحريك الوهم في استعراض ذلك» . وقال [2] : ومما يزيد به التشبيه دقة وسحراً أن يجيء في الهيئات التي عليها الحركات كقول الوزير المهلبي :

---

(١) ص ١٢٥ طبع المنار .

(٢) صفحة ١٤٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقةً ليس لها حاجب
كأنها بوتقة أحميت يجول فيها ذهب ذائب

وقول المؤلف « واستعارة قريبة » كذا في سائر النسخ بالقاف قال ابن رشيق[1] : « إنما يستحسنون الاستعارة القريبة وعلى ذلك مضى جلة العلماء واذا استعير للشيء ما يقرب منه ويليق به كان أولى مما ليس منه في شيء ولو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبي نواس :

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

فأي شيء أبعد من صوت المال فكيف حتى يبح من الشكوى والصياح ١ هـ » .

وحاصل مرادهم أن يكون وجه الشبه الذي بنيت عليه الاستعارة واضحًا وأن تكون إرادة الاستعارة واضحة حتى لا يحتاج الى القرينة أو الى تقوية القرينة .

(وعيار التئام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن الطبع واللسان) .

أراد بالطبع طبع الممارس للأدب كما قدمناه في شرح قوله « اتسع مجال الطبع » وباللسان لسان الممارس كذلك وقد فصّله بقوله :

(فما لم يتعثر الطبع بأبيّه وعقوده) .

التعثر اضطراب الرجل في المشي من تعرض شيء في الأرض . وأراد بالأبيّ الكلام المتكلف المستكره كما تقدم في تفسير قوله « من الأبيّ المستنكر » وفي إحدى نسختيْ تونس ونسخة الآستانه بأُبَنه وضبط بضمة على الهمزة وفتحة على الباء فهو جمع أبَنَة وهي العقدة تكون في العود فتتعرض لكف المثقف فتضطرب اليد كأنها عثرة وهذا أنسب بقوله يتعثر . وفي نسخة دار الكتب مثل ذلك لكن بلا ضبط . والعقود جمع عَقد بمعنى المعقود وأكثر ما يطلق هذا الجمع على عقود البناء دون عُقد الخشب وفي نسخة مكتبة طلعت وُعقده وهو جمع عُقدة وهي أنسب بالجمع .

(١) صفحة ١٨١ من العمدة ، مطبعة هندية بالقاهرة ، سنة ١٣٤٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(ولم يتجبس اللسان في فصوله ووصوله) ٠

إن أراد بالفصول والوصول المعنى الاصطلاحي عند علماء المعاني المتقدم في تفسير قوله «تناسب الفصول والوصول» تعين أن يكون المراد بتجبس اللسان في ذلك أن يثقل عليه ما اختل من ربط الجمل بعضها مع بعض حتى خرج عن معتاد أهل الاستعمال فيعطف الجملة حيث اعتيد فصلها ويفصلها حيث اعتيد وصلها وفي إطلاق التجبس على هذا تكلف ٠ ويجوز أن يكون أراد بالفصول والوصول المعنى اللغوي فالوصول اتصال أبيات القصيدة بعضها ببعض في تناسب معاني الأبيات والفصول فصول معاني البيت الواحد وهذا أنسب بقوله :

(بل استمرا فيه واستسهلاه بلا ملال ولا كلال فذلك يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت والبيت كالكلمة تساويا لأجزائه وتقارناً) ٠

وفي نسختيْ دار الكتب وطلمت وتقارباً بالموحدة والمعنيان متقاربان ٠

(والا يكون كما قيل فيه :

وشعر كبعر الكبش فرّق بينَه لسانُ دعيٍّ في القريض دخيل)

في إحدى نسختيْ تونس ضبط بفتحة على نون يكون فتعين أن تكون همزة الا مفتوحة ٠ وهي انْ المصدرية ادغمت في لا النافية وهو عطف على قوله ان يكون من قوله يوشك أن يكون ٠ وأما ضبطه بهمزة في أسفل الألف فيقتضي أن يجزم يكن ٠

والبيت المذكور هنا نسبه الجاحظ في البيان لأبي البيداء الرياحي واسم أبي البيداء أسعَد ترجمهُ ياقوت في معجم الأدباء ٠

(وكما قال خَلَف :

وبعض قريض الشعر أولاد علّة يكُد لسانَ الناطق المتحفظ)

نسخة يكد بالدال أحسن من نسخة يكل باللام وأشهر وكذلك هو في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نسختيْ تونس ونسخة الآستانة والعَلة بفتح العين ضرة المرأة وأولاد العلة الأخوة للأب وشاع أن يكون بينهم جفوة لأجل جفاء الأمهات ويضرب مثلاً للأشياء المتقاربة غير المتناسبة . وخلَف هو خلَف الملقب بالأحمر ابن حيان مولى بلال ابن أبي بردة وهو بصري علامة في العربية وكان قريب الأصمعي وأعلمَ أهل عصره بالشعر توفي في حدود الثمانين ومائة .

(وكما قال رؤبة لابنه عقبة وقد عرض عليه شيئاً مما قاله فقال : قد قُلتَ لو كانَ له قِران) .

كلمة رؤبة هي من الرجز . وفي البيان للجاحظ قال نوفل بن سالم أو عبيد الله ابن سالم لرؤبة بن العجاج : « يا أبا الجَحَّاف مُتْ مَتى شئتَ - قال وكيف ذاك - قال - رأيتُ عقبة بنَ رؤبة ينشد رجزاً أعجبني - قال - إنه يقول لو كان لقوله قِران » يريد بالقِران التشابه والموافقة كما فسره الجاحظ .

فالمراد بالقول في « قد قلت » في الخبر الذي حكاه المؤلف ومعنى « انه يقول » في الخبر الذي رواه الجاحظ هو القول الحسن المقبول أي هو يقول الرجز الحسن ولكنه يأتي بالبيت الحسن ومعه البيت الذي لا يماثله في الحسن وهذا كما قال عُمر بن لَجَأ لبعض الشعراء [1] : « أنا أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه » [2] . أراد بكونه أخًا شدة المشابهة في معنى الشعرية بحيث يحق أن يوضع الى جنبه .

(وانما قلنا على تخير من لذيذ الوزن لأن لذيذه يطرب الطبعُ لايقاعه ويمازجه بصفائه . كما يطرب الفهم لصواب تركيبه واعتدال نظومه ولذلك قال حسان :

تغن في كل شعر أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار)

---

(١) عمر بن لَجَأ التيمي من تيم الرّباب شاعر معاصر لجرير بن عطية الشاعر وقد تهاجيا ولعل كلمته هذه قالها لجرير .

(٢) صفحة ١٤٩ من البيان للجاحظ جزء ١ طبع المطبعة التجارية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ساق بيت حسان حجة على أن ميزان الشعر من نوع الموسيقى فأوزان الشعر وضروبه تتفاضل بمقدار شدة تناسب الحركات والسكنات كما هو شأن الموسيقى، فحسان يرشد الشاعر الى اختبار استقامة ميزانه بأن ينشد أبياته بالترنم كالغناء ليستبين له مستقيم الوزن فانه اذا أنشده فلم يتعثر لسانه في تساوي أجزائه علم استقامتها وإلا شعر باختلال فأصلحه بمقدار ما تحصل به المساواة وذلك انهم لم تكن عندهم قواعد العروض وانما كانوا يدركون الميزان بالسليقة . والمضمار المسافة التي تحدد للسباق بين الخيل والمعنى ان الغناء تظهر به خصال الشعر كما تظهر بالمضمار خصال خيل الحلبة .

(وعيار الاستعارة الذهن والفطنة وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبه والمشبه به ثم يكتفى منه بالاسم المستعار لأنه المنقول عما كان له في الوضع الى المستعار له) .

إدراك حسن الاستعارة كإدراك قرب التشبيه ولذلك جعل ملاك أمرها قرب التشبيه . وملاك الشيء بفتح الميم وكسرها قوامه الذي يملك به أي ما يملك به حسن الاستعارة ويحقق هو تقريب التشبيه وتقريب التشبيه تقدم وقوله «لأنه المنقول عما كان له في الوضع الخ» تعليل ليكتفى منه أي لأنه ادعى ان المشبه من أفراد المشبه به فنقل اسم المشبه به الى المشبه وأطلق عليه مع عدم ذكر حرف التشبيه لأن الاستعارة مبنية على تناسي التشبيه .

(وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية طول الدربة ودوام الدراسة فاذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض لا جفاء في خلالها ولا نبو ولا زيادة فيه ولا قصور وكان اللفظ مقسوماً على رتب المعاني قد جعل الأخص للأخص والأخس للأخس فهو البريء من العيب) .

أحال المؤلف في هذا على طول الدربة ودوام المدارسة أي مدارسة أهل الفن في مختلف الشعر من نقد واختيار وهذا من الحوالة على الذوق وقد قدمناه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله لا جفاء في خلالها وقع في نسختي تونس ونسخة الآستانة لا خفاء بالخاء المعجمة من فوق في خلالها بضمير التثنية والظاهر ان ذلك تحريف .

والمراد بالأخص الكامل كأنه جعل من الخاصة أي أصحاب الكمال ولذلك قابله بالأخس .

(وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر يتشوقها المعنى بحقه واللفظ بقسطه والا كانت قلقة في مقرها مجتلبة لمستغن عنها) .

قوله (يتشوقها المعنى بحقه) أي يقتضيها فجعل اقتضاء معنى البيت للقافية كالتشوق وهو شدة الشوق وجعل ذلك الشوق ملابساً للحق أي يتشوقها تشوقاً حقاً وجعل اللفظ متشوقاً للقافية بقسطه أي بحظه من البيت فان للألفاظ حظوظاً من المناسبة كما تقدم .

ألا ترى قول أبي الطيب :

رأيتُك في الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم في محال

فانك تجد كلمة القافية مغتصبة مجتلبة لأجل الروي وإلا فان الاستقامة يقابلها الاعوجاج بيد انه غفر له ذلك قوله بعده :

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

فجاء بمعنى بديع وقافية متشوقة بحيث لا يمكن أن تعوض بغيرها . وقد تقدم بيان بقية كلام المؤلف في عد الأبواب السبعة .

(فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم . والمحسن المقدم . ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والاحسان . وهذا اجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن) .

قال قدامة في نقد الشعر « ما يوجد من الشعر الذي اجتمعت فيه الأوصاف المحمودة كلها وخلا من الخلال المذمومة بأسرها ، يسمى شعراً في غاية الجودة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما يوجد بضد هذه الحال يسمى شعراً في غاية الرداءة وما يجتمع فيه من الحالين أسباب ينزل له اسماً (كذا) بحسب قربه من الجيد أو من الرديء أو وقوعه في الوسط الذي يقال لما كان فيه صالح أو متوسط أو لا جيد ولا رديء » .

(واعلم ان لهذه الخصال وسائط وأطرافاً فيها ظهر صدق الواصف وغلو الغالي واقتصاد المقتصد وقد اقتفرها اختيار الناقدين) .

أثبت الدكتور الناشر كلمة اقتفرها بتقديم القاف على الفاء وكذلك هي في نسخة الآستانة وهي كما فسرها الدكتور الناشر بمعنى تتبع الأثر وسياق الكلام يرجح هذه النسخة وذكر الناشر انها في نسخة ط بتقديم الفاء وكذلك هي في نسختيْ تونس ويظهر انه تحريف .

(فمنهم من قال أحسن الشعر أصدقه قال لأن تجويد قائله فيه مع كونه في اسار الصدق يدل على الاقتدار والحذق ومنهم من اختار الغلو حتى قيل أحسن الشعر أكذبه لأن قائله اذا أسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف امتد فيما يأتيه الى أعلى الرتبة وظهرت قوته في الصياغة وتمهره في الصناعة واتسعت موالجه ومخارجه فتصرف في الوصف كيف شاء لأن العمل عنده على المبالغة والتمثيل لا المصادقة والتحقيق وعلى هذا أكثر العلماء بالشعر والقائلين له . وبعضهم قال أحسن الشعر أقصده لأن على الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعراً فقط فما استوفى أقسام البراعة والتجويد أو جلها من غير غلو في القول ولا إحالة في المعنى ولم يُخرج الموصوفَ الى أن لا يؤمَن بشيء من أوصافه لظهور السرف في آياته وشمول التزيد لأقواله كان بالإيثار أولى) .

هذا مقام شاع خوض البلغاء فيه من عهد الجاهلية وقد رويت قصة طعن النابغة على حسان فى عكاظ ـ قول حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافُنا يقطرن من نجدة دما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهي مشهورة في دواوين الأدب العربي وقد ذكرها قدامة في باب المعاني الدال عليها الشعر . وقد اختار أئمة الأدب الغلو كما صرح به المؤلف هنا وسبقه اليه قدامة في نقد الشعر إذ يقول « إن الغلو عندي أجود المذهبين وهو ما ذهب اليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً ـ قال ـ وقد بلغني عن بعضهم أنه قال أحسن الشعر أكذبه اهـ » . والاستعارة مبنية على الكذب وكذلك المبالغة وعلى هذا الاختلاف جرى كلامهم في المبالغة المقبولة والمردودة كما هو مبين في فن البديع .

وقد نبه المرزوقي تبعاً لقدامة على أن مرادهم بالأكذبِ هو الغلو وهو كذب تصاحبه قرينة على انه مخالف للواقع لغرض لطيف وليس مرادهم الكذب مطلقاً .

وقوله « فمنهم من قال أحسن الشعر أصدقه » قال حسان بن ثابت وربما نسب الى زهير [1] :

وانما الشعر لب المرء يعرضه على البرية ان كيساً وان حمقا
وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

يعني بذلك أن يكون الشعر تعبيراً عن الأمر الواقع وقد قدمنا الكلام عليه عند الكلام على شرف المعنى . وقوله « كان بالإيثار أولى » في نسختي تونس ونسخة الآستانة « كان بالإيثار والانتخاب أولى » .

(ويتبع هذا الاختلافَ ميلُ بعضهم الى المطبوع وبعضهم الى المصنوع . والفرقُ بينهما أن الدواعي اذا قامت في النفوس وحركت القرائح أعملت القلوب واذا جاشت العقول بمكنون ودائعها وتظاهرت مكتسبات العلوم وضروریاتها نبعت المعاني ودرّت أخلافُها وافتقرت خفيات الخواطر الى جليات الألفاظ فمتى رفض التكلف والتعمل وخلي الطبع المهذب بالرواية المدرب في الدراسة لاختياره

(١) كما في صفحة ١٤٢ ج ٣ العقد الفريد والمشهور في كتب الفن نسبته الى حسان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاسترسل غير محمول عليه ولا ممنوع مما يميل اليه ـ أدى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكون صفواً بلا كدر وعفواً بلا جُهد وذلك هو الذي يسمى المطبوع . ومتى جعل زمام الاختيار بيد التعمل والتكلف عاد الطبع مستخدماً متملكاً وأقبلت الأفكار تستحمله أثقالها وتردده في قبول ما يؤديه اليها مُطالبةً له بالإغراب في الصنعة وتجاوز المألوف الى البدعة فجاء مؤداه وأثرُ التكلف بلوح على صفحاته وذلك هو المصنوع . وقد كان يتفق في أبيات قصائدهم من غير قصد منهم اليه اليسيرُ النزرُ ، فلما انتهى قرض الشعر الى المحدَثين ورأوا استغراب الناس للبديع على افتنانهم فيه أولعوا بتورده إظهاراً للاقتدار وذهاباً على الإغراب فمن مفرط ومقتصد ، ومحمود فيما يأتيه ومذموم ، وذلك على حسب نهوض الطبع بما يُحمَّل ومدى قواه فيما يطلب منه ويكلَّف . ـ فمَن مال الى الأول فلأنه أشبه بطرائق الأعراب لسلامته في السبك واستوائه عند الفحص ، ومن مال الى الثاني فلدلالته على كمال البراعة والالتذاذ بالغرابة) .

كلام المؤلف هنا مفصح أتم الإفصاح غير محتاج الى الشرح .

ويجب التنبيه على كلمات : فقوله « واذا حاشيت » في نسختيْ تونس ونسخة الآستانة فاذا بالفاء وهو أحكم ربطاً . وقوله « لاختياره » متعلق بقوله « وخلي الطبع » .

(وأما تعجبك من أبي تمام في اختيار هذا المجموع وخروجه عن ميدان شعره ومفارقته ما يهواه لنفسه وإجماع نقاد الشعر بعده على ما صحبه من التوفيق في قصده ، فالقول فيه ان أبا تمام كان يختار ما يختاره لجودته لا غير ويقول ما يقوله من الشعر بشهوته ، والفرق بين ما يشتهى وبين ما يستجاد ظاهر ، بدلالة ان العارف بالبَز قد يشتهي لبس ما لا يستجيده ويستجيد ما لا يشتهي لبسه وعلى ذلك حال جميع أغراض الدنيا مع العقلاء العارفين بها في الاستجادة والاشتهاء . وهذ الرجل لم يعمد من الشعراء الى المشهورين منهم دون الأغفال ولا من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشعر الى المتردد في الأفواه والمجيب لكل داع ، فكان أمره أقرب ، بل اعتسف في دواوين الشعراء جاهليّهم ومخضرمهم واسلاميّهم ومولدهم فاختطف منها الأرواح دون الأشباح واخترف الأثمار دون الأكام وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ، لأن ضروب الاختيار لم تخف عليه وطرق الاحسان والاستحسان لم تستتر عنه) .

ليست بعد هذا الكلام حاجة الى الشرح .

(حتى انك تراه ينتهي الى البيت الجيد فيه لفظة تشينه فيجبر نقيصته من عنده ويبدل الكلمة بأختها في نقده) .

ان ما حدا أبا تمام الى ذلك أنه لما قصد الى اختيار ما يختار من الشعر لم يقصد صحة رواية أشعارهم لأنها كانت مجموعةً مروية وانما أراد تقريب المختار منها الى أذواق الناشئين في صناعة الشعر لتكون لهم مثالاً تحتذيه أذواقهم ومنوالاً تُنسج عليه أشعارهم ومع هذا فانه لا يصير الى هذا التغيير إلا نادراً عند الاقتضاء فقد عمد الى قول الربيع بن زياد في رثاء مالك بن زهير :

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ فليأت نسوتنا بوجه نهار

فغيره وجعله فليأت ساحتنا وحمله على ذلك كراهية تعليق فعل الإتيان بالنسوة . وكذلك عمد الى قول تأبط شراً :

وأُبْتُ الى فهم وما كدت آيباً وكم مثلها فارقتُها وهي تصفِر

فغيره ولم أَكُ آيباً مراعاةً لكون ما كدت يقتضي أنه نفي اقتراب إيابه مع أنه قد آب وفي داعي تغييره نظر يعلم من قوله تعالى : «فذبحوها وما كادوا يفعلون » .

(وهذا يبين لمن رجع الى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها . ولو أن نقد الشعر كان يدرك بقوله لكان من يقول الشعر من العلماء أشعر الناس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويكشف هذا انه قد يميز الشعر من لا بقوله وبقول الشعر الجيد من لا يعرف نقده ، على ذلك كان البحتري لأنه فيما حكي عنه كان لا يعجب من الشعر إلا بما يوافق طبعه ومعناه ولفظه) .

قال في دلائل الاعجاز : روي ان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر سأل البحتري عن مسلم بن الوليد وأبي نواس أيهما أشعر فقال : أبونواس . فقال : ان أبا العباس ثعلباً لا يوافقك على هذا . فقال : ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله إنما يعلم ذلك من دُفع في سلك طريق الشعر إلى مضايقه وانتهى الى ضروراته اهـ .

(وحكى الصولي أنه سمع المبرد يقول سمعت الحسن بن رجاء يقول : ما رأيت أحداً قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام . وحكي عنه أنه مر بشعر ابن أبي عيينة فيما كان يختاره من شعر المحدثين فقال : وهذا كله مختار . هذا وشعره أبعد الأشياء من شعره وهذا واضح) .

تقدمت ترجمة الصولي . وأما المبرد فهو أبو العباس محمد بن يزيد المبرِد بكسر الراء الأزدي البصري المولود سنة ٢١٠ والمتوفى سنة ٢٨٥ إمام العربية ببغداد إذ كان فصيحاً علامةً في العربية صنف كتاب الكامل جمع فيه من أبلغ الكلام وأفصحه نظماً ونثراً . ولقب المبرد أي المثبت للحق وله تآليف جمة . وأما الحسن بن رجاء فهو أديب شاعر كان زمن الواثق ولم أقف على سنة وفاته وذكر له في الأغاني أبياتاً أربعة كتب بها الى الحسين بن الضحاك الشاعر في ترجمته . وابن أبي عيينة اسمه أبو عيينة [1] وكنيته أبو المنهال ونسب الى جده فهو أبو عيينة بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي [2] البصري

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٢٤٩ طبع دار المعارف بمصر .
(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٨ طبع بولاق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان شاعراً مطبوعاً من شعراء [١] دولة الأمين [٢] ومدح طاهر بن الحسين في خلافة المأمون . قال ابن الأثير في الكامل انه أنشد طاهر بن الحسين :

ما ساء ظني إلا بواحدة في الصدر محصورة عن الكلم

بعرض بقتل طاهر محمداً بن يزيد المهلبي فتبسم طاهر وقال أما والله ساءني من ذلك ما ساءك وآلمني ما آلمك الخ ترجمه في الأغاني [٣] وقال « كان ابن أبي عيينة يهوى فاطمة بنت عمر بن حفص الملقب هزارمرد من قواد الدولة العباسية . وعن المبرد أنه قال لم يجتمع لأحد من المحدثين في بيت واحد هجاء رجل ومديح أبيه كما اجتمع لابن أبي عيينة في قوله يهجو خالداً عمه :

أبوك لنا غيث نعيش بكنفه وأنت جواد ليس يبقي ولا يذر

وعاش ابن أبي عيينة بعد موت المأمون ولم أقف على تعيين عام وفاته . وقول أبي تمام في شعره « وهذا كله مختار » هو السبب في أنه لم يثبت شيئاً من شعره في ديوان الحماسة .

(وأما ما غلب على ظنك من أن اختيار الشعراء موقوف على الشهوات إذ ما كان يختاره زيد يجوز أن يزيفه عمرو ، وان سبيلها سبيل الصور في العيون الى غير ذلك مما ذكرته ، فليس الأمر كذلك لأن من عرف مستور المعنى ومكشوفه ومرفوض اللفظ ومألوفه وميز البديع الذي لم تقتسمه المعارض ولم تعتسفه الخواطر ونظر وتبحر ، ودار في أساليب الأدب فتخير ، وطالت مجاذبته في التذاكر والابتحاث ، والتداول والابتعاث ، وبان له القليل النائب عن الكثير ، واللحظ الدال على الضمير ، ودرى تراتيب الكلام وأسرارها ، كما درى تعاليق المعاني وأسبابها ، الى غير ذلك مما يكمل الآلة ويشحذ القريحة ؛

---

(١) تاج العروس .
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٩٥ .
(٣) جزء ١٨ صفحة ٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تراه لا ينظر إلا بعين البصيرة ولا يسمع إلا باذن النصفة ولا ينتقد إلا بيد المعدلة فحكمه الحكم الذي لا يبدل ونقده النقد الذي لا يغير) .

قال الآمدي في الموازنة[1] : « وأنبه على الجيد وأفضله على الرديء . وأبين الرديء وأرذله وأذكر من علل الجميع ما ينتهي اليه التخليص وتحيط به العناية ويبقى ما لم يمكن إخراجه الى البيان . ولا إظهاره الى الاحتجاج ، وهي علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتزاج وإلا لا يتم ذلك اهـ » .

(واعلم انه قد يعرف الجيد من يجهل الرديء والواجب أن تعرف المقابح المتسخطة كما عرفت المحاسن المرتضاة) .

هذا شروع في التنبيه على علل اختلال الشعر وصفات رديئه بعد أن انتهى من بيان أسباب الجودة والاختيار . وأراد بقوله قد يعرف الجيد من يجهل الرديء انه قد يتمحص بعض الأدباء للانكباب على مطالعة المختارات والدواوين المشهود لها بالإجادة ولا يشتغل بتتبع ساقط الأشعار لأن في طباع الناس اتباعَ الكمال ومحبةَ العكوف على الحسن إرضاءً لميل النفس الى محاسن الأشياء وجمالها فيبقى غير عالم بالرديء ، ويتطاول الإعراض عن تتبع الرديء يضعف انتباهه الى علل السقوط وأسبابِ الرداءة . وليس مراده بجهل الرديء العجز عن أن يدرك رداءة الرديء فان من عرف الجيد لا يعدم إدراك ما ليس بجيد كما دل عليه قوله « والواجب أن تعرف المقابح الخ » فكما يجب معرفة أسباب الاختيار يجب معرفة علل النقد . فلا جرم ان كان واجباً على من يعنى بالأدب اهتمامُه بمطالعة ما للشعراء من أسقاط[2] وأغلاط كما يهتم بما لهم من بدائع اغلاط .

(١) صفحة ١٦٧ .

(٢) جمع سقط وهو الشيء الساقط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فان ذلك يزيد الحسن في نفسه حسناً ولأن ذلك يكسبه ملكة الحكم مقدرة الاقناع بأسباب الارتفاع والانحطاط .

(وجماعها اذا أجملت انها أضداد ما بيناه من عَمَد البلاغة وخصال البراعة في النظم والنثر) .

أراد بعمد البلاغة ما سماه فيما تقدم عمود الشعر وهو الأبواب السبعة وبخصال البراعة ما سبق من شروط الإجادة عند البلغاء .

(وفي التفصيل كأن يكون اللفظ وحشياً) .

قوله وفي التفصيل عطف على قوله اذا أجملت وهذا تفصيل ما أجمله آنفاً .

وقوله «كان يكون اللفظ وحشياً» يقال وحشي ويقال حوشي بطريق القلب المكاني والوحشي اللفظ الذي يقل استعماله في الكلام الفصيح أو يكون مراد الشاعر به غير معلوم ومثاله ما وقع في شعر أبي حزام غالب العكلي من شعراء زمن المهدي قوله :

تذكرتُ سلمى وأهلاسَهـا فلم أنس والشوق ذو مطرُوْة

وأنشد أحمد بن جحدر ابن الأعرابي أبياتاً منها قوله :

حلفت بمـا أرقلت نحوه هَمَرْجَلَةٌ خَلقهـا شيظم

فقال له ابن الاعرابي إن كنت جادًّا فحسبك الله .

(أو غير مستقيم) .

أراد به ما خالف قياس اللغة كقول أبي النجم «الحمد لله العلِيّ الأجْلَل» بفك الادغام ، أو ما خفي اشتقاقه كقول العجاج «وفاحماً ومرسناً مسرجاً» فلم يدر أأراد أنه منسوب الى السيف السريجي في الدقة والاستواء أم الى السراج في البريق .

(أو لا يكون مستعملاً في المعنى المطلوب) .

يعني به الغلط في استعمال اللفظ كما تقدم من قول المسيب بن علس :

«بناج عليه الصيعرية مكدم»

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومثله الاستعارة المذمومة كقول أبي تمام :

لا تسقني ماء الملام فانني صب قد استعذبت ماء بكائي

(فقد قال عمر رضي الله عنه في زهير : لا يتتبع الوحشي ولا يعاظل في الكلام) .

ساقه المؤلف حجة على السلامة من الوحشية ومن عدم الاستقامة ولذلك لم يقتصر على إحدى الجملتين كما اقتصر على الجملة الثالثة فيما تقدم من قول عمر « ولا يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال » حيث كانت ترجع الى حسن معنى الوصف .

وقول عمر « لا يعاظل في الكلام » وقع في نسختي تونس وفي نسخة الآستانة ولا يعاظل الكلام بسقوط حرف الظرفية وكذلك في النسخة الشنقيطية من النسخ التي اعتمدها الناشر ولا وجه لسقوط « في » إذ لا يتعدى فعل يعاظل الى الكلام بنفسه . وفي كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد [1] « ولا يعاظل بين الكلامين » وفي نقد الشعر والموازنة والمثل السائر « ولا يعاظل بين الكلام » وإضافة بين الى الكلام وهو مفرد لأنه على تقدير الأجزاء أي بين أجزاء الكلام ومفرداته . ومعنى يعاظل يجعل الكلام متعاظلاً كما جاء في الحديث : « سابَقَ بين الخيل » أي جعلها تتسابق والمؤلف غير كلام عمر بأن جعل حرف الظرفية في موضع بين ليوضح معنى بين . واختلفت أقوالهم في تفسير المعاظلة اختلافاً يتبعون فيه ما يقتضيه اشتقاق اللفظ : ففسر أبو زيد المعاظلة بأن يُردِّد الكلام في القافية لمعنى واحد (يعني الإبطاء) . وفسرها قدامة بأنها أن يدخل الكلام ما ليس من جنسه وما هو غير لائق به وهذا تفسير غلط فيه الآمدي في الموازنة . وفسر هو المعاظلة بأنها شدة تعلق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض وان يداخل لفظة من أجل لفظة تشبهها أو تجانسها وان اختل المعنى بعض الاختلال كأنه يعني الافراط في التجنيس ومثّلها بقول أبي تمام :

(١) صفحة ٢٥ طبع بولاق سنة ١٣٠٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسمه الكمدُ

لكثرة ألفاظ خان وتخون وأخ وأخا . وفسرها ابن الأثير في كتاب المثل السائر بما يشمل التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي والتنافر وتكرار العوامل وتتابع الاضافات . ويظهر أن المؤلف يجعل المعاظلة كون اللفظ غير مستقيم الدلالة أو غير مستعمل في المعنى المطلوب وهذا تفسير يشمل جميع ما فسروا به المعاظلة فلله دره في إيجازه وإعزازه وأياما كان تفسير المعاظلة فهي عيب يتعلق بالألفاظ من حيث هي دالة على المعاني التي تفهم منها .

(أو يكون فيها زيادة تفسد المعنى أو نقصان) .

أما الزيادة المفسدة فكقول الشاعر :

بأطيبَ من فيها لوَ أنك ذقته اذا ليلةٌ أسجت وغارت نجومها

فقوله لو انك ذقته زيادة تفسد المعنى لأنها توهم أنه لو لم يذقه لم يكن طيباً .

وأما النقصان المفسد للمعنى فهو أن يترك من اللفظ ما به تمام المعنى المراد كقول الشاعر :

لا يَرْمَضون اذا حَرَّتْ مشافرُهم ولا ترى منهم في الطعن ميالا

ويفشلون إذا نادى ربيئُهم ألا اركبُنَّ فقد آنستُ أبطالا (١)

فقوله ويفشلون أراد ان يقول ولا يفشلون فحذف لا فصار الى ضد المعنى .

ومن هذا النوع الإيجاز الذي لا يفي بالمقصود كقول الحارث بن حلزة :

والعيش خير في ظلا ل النُّوك ممن عاش كدا

أراد العيش الناعم في حالة الحماقة خير من العيش بكد في حالة العقل فقصر عن المراد .

(تونس) محمد الطاهر ابن عاشور

«يتبع»

---

(١) يصف قوماً باباء الضيم فشبههم بابل لا ترمَضُ أي لا ترعى الرَّمِضَة وهي الأرض التي اشتدت حرارة مرعاها من شدة الرمضاء . وفي لا يرمضون استعارة مكنية ووصفهم بالنشاط اذا دُعوا الى منازلة الأبطال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net